

LA NATIONALISATION DE LA LITTÉRATURE

J. P. SARTRE

تأميم الأدب

[نشتر هذا المقال الرائع الذى تفضل بارساله إلينا الكاتب الفرنسى العظيم جان بول سارتر . وسيرى القراء أنه يعرض لموضوع عظيم الخطر هو الصلة بين الأدب والسياسة والاجتماع . وكل ماتمنها هو أن يتدبر أديباؤنا هذا المقال القيم ، فقد يدعو كثيراً منهم إلى التفكير ، وقد يثير فى نفس كثير منهم خواطر قيمة]

فى سنوات الفوضى الشاملة التى تلت معاهدة فرساي كان المؤلفون يستحيون من الكتابة ، وكان النقاد لا يرغبون فى القراءة . ولم يكن الإنسان يجد أدباء فى الأندية الأدبية ، بل يلتقى فيها أشخاصاً احترفوا الكتابة فى الغزل الماجن والإجرام واليأس والثورة والتصوف . وكان هؤلاء الكتاب يقبلون ، على أثر إلحاح ناشرهم ، أن يصدروا رسالة مرة أو مرتين فى كل سنة . ولما كانوا لا يعيرون قراءهم أقل اكتراث ، فضلاً عن أنه أصبح من الأمور المتفق عليها أنه ليس فى وسع الألفاظ التعبير عن المعانى ، فإن الجمهور كان يشتري كتباً كثيرة ولكنه يقرأ قليلاً . وإذا ما دفع الشعور بتبعة المهنة أحد محررى الصحف إلى التفرغ بضع ساعات لهذه المهمة ، فإن نظره كان ينفذ خلال النص كما تنفذ الشمس خلال زجاج النافذة ، ويبلغ الرجل نفسه فيجعله موضوع كتابته . ذلك أن دوق العصر كان يميل إلى الإرهائية . وكانوا يفترضون أن المؤلفين لم يكتبوا قط ، وإذا ما نظروا إلى مؤلفاتهم فلم يكن ذلك إلا باعتبارها مجموعة من المعلومات المنوعة عن خُلُقهم . وكانوا يتحدثون عن وسائلهم الكتابية وعن أساليبهم البيانية ، كأن الأمر لم يكن متعلقاً بحيل فنية يصطنعونها ، بل

بتفاصيل شيقة تتصل بحياتهم الخاصة . فلم يكونوا يذكرون عن «جيرودو» أنه نشر هذا الكتاب أو ذلك ، بل « أنه يأخذ بيدنا ، ويجعلنا ندور معه . يخيل إلينا أننا نتبعه في « بيلاك »^(١) وهانحن أولاء في الصين ، تراه يرمي بسهم يصوبه نحو برلين وإذا بطير من طيور الجنة يهوى من السماء في « ميلووكي »^(٢) ونستطيع أن نتبين من هذا إلى أى مدى وصل الاحتقار في ذلك الوقت للمسائل الأدبية الخالصة .

أما اليوم فقد تغيرت الحال ، وقد أعيد إلى الأدب وإلى البيان كرامتهما وسلطانهما . ولم يعد المقصود إشعال نيران في أذفال الحديث ، والمزاوجة بين « ألقاظ » يحرّق بعضها بعضاً ، وإدراك المعاني المطلقة بإحراق مفردات القاموس ، بل أصبح الغرض من الكتابة تحقيق الاتصال بين الكاتب وغيره من الناس عن طريق استعمال الوسائل الموجودة القريبة من متناول اليد استتمالا متواضعاً . وإذ قد زال الزهو الذي كان يقضى بفصل الفكرة عن اللفظ ، واستقلال كل منهما عن الآخر ، لم يعد من الممكن حتى أن نتصور احتمال أن الألقاظ لا تعبر عن الفكرة تعبيراً صادقاً . وقد استرد قدر من الأمانة والصدق يسمح بالألقاظ لا يقبل حكم يصدر على أساس هذا الشعور الفائق الوصف البعيد المنال الذي لا تستطيع الألقاظ الإفصاح عنه ولا يسع الأفعال بيانه . وقد رثي أنه لا يمكن تعرف النيات إلا عن طريق الأعمال التي تخرجها إلى الوجود وتحققها ، ولا تبين المعاني إلا عن طريق الألقاظ التي تترجمها وتعبّر عنها . وعاد النقد على أثر ذلك إلى القراءة . وكان هذا خيراً ما يمكن أن يرجوه الإنسان ويتمناه ، لو لم يظهر في الأسلوب الذي يصطنعه النقاد للتحدث عن الآثار الفكرية بوادر اتجاه جديد أشد خطراً من الاتجاه القديم . نعم إنه لم يعد أحد ينظر إلى المؤلف على اعتبار أنه رجل شاذ أو مجنون أو قاتل أو دجال ، أى على أنه دمية من هذه الدمي التمثيلية المهرجة . بل على العكس لا يترك النقاد فرصة تمرّ دون أن يذكروه بعظمتهم وبالواجبات الملقاة على عاتقه . ولست أدري حيال ذلك أخير للكاتب أن ينظر إليه على أنه من هذه

[التعليقات كلها من المترجم]

(١) القرية التي ولد فيها بفرنسا .

(٢) مدينة في الولايات المتحدة .

الدمى التمثيلية ، من أن ينظر إليه تلك النظرة الرسمية التي ينظر بها إلى موظف حكومي ذي مركز محترم . فان الوقار الذي يحاط به الكاتب يذكر تذكيراً قوياً بذلك الوقار الذي يوجه إلى السيدات العاملات في الجمعيات الخيرية وإلى كبار موظفي الحكومة . وقد قال لي ذات يوم شخص ذو مكانة رسمية وهو يتحدث عن « دولان (١) » : « إنه ثروة وطنية » . لم أضحك من هذا القول لأن القلق يساورني بسببه ؛ إذ أتى أخشى أن يسعى اليوم عن طريق مناورة ماهرة إلى تحويل الكتاب ورجال الفن إلى ثروات وطنية . لا شك أن لنا أن نفتبط من أن الحديث عن حوادثهم الغرامية قل ، وأن قد زاد من ناحية أخرى التحدث عن آثارهم نفسها . إنما هذا الحديث الأخير يغمره إجلال مغالى فيه وزائد عن الحد . وليس مرجع ذلك أن النقاد ازدادوا تسامحاً ، أو أنهم يتساهلون في المدح والثناء ، إنما مرجعه أن هؤلاء النقاد لا يستطيعون وضع المؤلفات التي يتحدثون عنها في مواضعها إلا بصعوبة كبيرة . وقد أتى على الأدب حين من الدهر كان مجرد الاجترار على نشر كتاب — بعد ما كتبه « راسين » أو « فينيون » أو « بسكال » — يعد وقاحة بالغة . ولم يكن تفوق الكاتب — مهما امتاز هذا التفوق — من شأنه أن يجلب له الصنح عما ارتكب من جرم باقياه على الكتابة . أما اليوم فالامر على عكس ذلك . والآثار الأدبية الجديدة ينظر إليها حتى قبل ظهورها نظرة فيها كثير من الرضا والمطف . على أن هذه الرعاية لا تتجه إلى ما يبذل الفنان من جهد للتعبير عن شعوره ، وهو دائماً جهد فردي منعزل وفيه كثير من التردد وعدم الاستقرار . إنما مبعثها أنه ينظر إلى كل كتاب جديد كأنه حفلة رسمية ، أو إن شئت فقل كأنه مساهمة مطاوعة للاشتراك في أعياد الجمهورية الرابعة واحتفالاتها . ولا يُنقد هذا الكتاب على أنه ثمر ما زال فجئاً ولا يزال في حاجة إلى النضج حتى يستخلص منه كل ما ينطوى عليه من قيمة ومن معان ، بل يُتحدث عنه كما يتحدث عن ولية يقيمها المحاربون القدماء ، أو عن ذلك المعرض السنوي الذي يقام للسيارات . وقد أخذ جمهور قراء الأدب يحذو هذا الحذو وينتهج هذه السبيل . ففي بعض الأوساط لم يعد يقال عن قصة أو قصيدة أو عن أي أثر أدبي إنه رائع أو طريف

(١) أحد كبار المخرجين المعاصرين في المسرح الفرنسي .

أو مؤثر ، إنما يتخذ صوت رخيخ ينطوى على كثير من الاهتمام للإدلاء بهذا النصح : « عليك بقراءته فإنه مهم جداً » . مهمٌّ كأنه خطاب يلقيه بوانكاريه يوضح فيه سياسته المالية ، بمناسبة إزاحة الستار عن نصب تذكاري للموتى ، أو كأنه حديث يدلى به زعيم من زعماء العمال . تصور مثلاً أن مدام دي سيفينييه تكتب لابنتها : « لقد شاهدت مسرحية « إستير » ، إنها خطيرة جداً » . هل يتحول الأدباء فيصيروا رجالاً مهمين ؟

ثم كيف نستطيع أن نحكم على خطورة مؤلفات تبتدىء في وجودها ؟ ليس ينبغي أن تمر مائة عام حتى يمكن تقدير هذه الخطورة ، وذلك بالحكم على نتائج هذه المؤلفات وعلى ما أحدثت من أثر ؟ وسرمان ما تدرك النهج الذي ينتهجه النقاد ومدعو الحكم في الأدب . فاهتمامهم بتقدير الكتاب في نفسه أقل من اهتمامهم بتقدير ما سيكون لهذا الكتاب من أثر في الوقت الحاضر وفي المستقبل تقديراً إجمالياً مقدماً . وعلى ذلك فإنهم يسمون في الحال التيارات الأدبية التي سيوجدونها ، ويحللون الدور الذي سيقوم به في حركة اجتماعية لم تلتشأ بعد . فعند ما نشر مسيو « جوليان جراك » ^(١) كتابه « المظلم الرائع » بادر النقاد إلى التحدث عن « عودة إلى السوريازم » . عودة من ؟ فإن مسيو جراك لم يفارق هذا المذهب في يوم من الأيام . وحتى إذا رجعنا إلى « قصر أرجول » ^(٢) فأنا نتبين على عكس ذلك أنه يبتعد كثيراً عن أسلوبه الأول . غير أن نقادنا الحاذقين لا يكثرثون بإظهار ما في آراء الكاتب من اتصال ، أو ما يطرأ على شخصيته من تطوّر بطيء مع محافظتها على نهج أساسي واحد . وإنما ينظرون إلى الأثر الأدبي في نفسه ، كأنه منفصل عن مؤلفه . ففي سنة ١٩٤٥ أي بعد تحرير فرنسا بستة أشهر قامت « ظاهرة من ظواهر مذهب السوريازم » . هذا وحده ما يسترعى اهتمامهم . وكان هذا أسلوبهم في النقد حتى قبل الحرب ؛ إذ كانوا يقولون عند ما ظهر « سان ساتورنان » ^(٣) : « هذه القصة تعتبر مرحلة هامة ،

(١) من الكتاب المعاصرين للمحوظين . وكتابه المذكور « المظلم الرائع » يدخل مذهب « السوريازم » في الأدب دون أن يعتبره مذهباً خاصاً ، بل باعتباره أسلوباً طبيعياً من أساليب الكتابة .

(٢) ظهر قبل « المظلم الرائع » . وهو أول كتاب أصدره وعرفه إلى الجمهور .

(٣) قصة ظهرت حوالى سنة ١٩٣٥ .

إذ أنها تدل على عودة النظام إلى الأدب . ما أعجب هذا الحكم ! فإن نساء مسيو « شومبرجيه » والتحاقه بحزب النظام يعتبران مرحلة واحدة . وإذا نظرنا إلى أصحاب الشغب والاضطراب أمثال « بریتون » و « كوكتو » فإننا لا نأظن أن « سان ساتورنان » قد أثار فيهم أقل تأثير ، بل لعلهم لم يقرءوه . ومع ذلك فإن مثل هذا الاعتراض لا يزعمهم في قليل أو في كثير . فكل عام جديد ، بل كل مطبوع جديد يعتبر في نظرهم بدء مرحلة أو نهايتها ، أو كأنه في نفس الوقت بداية ونهاية . وهذا أحد النقاد يتنبأ لنا بأن أماننا عشرين عاماً عجافاً لن تظهر آثار هامة قبل مرورها . على أن غيره يرى في نفس الوقت أن تلك الفترة ستأتينا بسنوات سمان ، وهو يبين لنا في دقة كيف أن أدب المستقبل القريب سيكون خصباً بسبب ما أحدثته الاحتلال من آلام وما أزله من محسن . ويحذرننا ثالث من خطر التأثير الأمريكي في الأدب الفرنسي ، أى إن أماننا عشرين عاماً من القصص الأمريكية . على أن رابعاً يهدى من روعنا ، لأن نشر قصة ، ولا أدري أية واحدة هي ، كان بمثابة الناقوس الذى يؤذن بوفاة هذا التأثير السيئ وانقضائه ، فى حين يقول خامس وسادس وسابع بظهور مذاهب أدبية جديدة يستكشفونها فيما نحن فيه من اضطراب . فيقولون لنا إن هناك مذهباً « وجودياً ^(١) » يمتد أثره فيشمل فنون الرسم والتصوير ؛ إذ أنه يوجد رسامون ومصورون « وجوديون » ، بل موسيقيون « وجوديون » . ويظهر — وأنا أعتذر من التحدث عن نفسى — أن لى فى ذلك شأننا . على أننا إذا صدقنا ناقداً آخر فليس لى أى دخل فى ذلك ، إذ أنى زعيم مذهب « السوريلزم الجديد » ، وتحت لوائى « إيلوار » و « بيكاسو » (وأنا أستمحهما كل العذر من ذلك ؛ فإنى والله الحمد ، لم أنس بعد أنى لم أكن إلا طفلاً غرماً فى الوقت الذى بلغا فيه مكاتهما الفنية التى يؤمن لهما بها الناس جميعاً) . وآخر مذهب ظهر مذهب « التبوؤس » وهو مذهب من حداثة العهد بحيث لم أعرف بعد أن له من يمثله بين الأدباء . وإلى جانب هذا فهناك ألوان أخرى من العبث ، مثال ذلك أن يحاول بعضهم أن يصوروا لنا الكتاب الذى ننتظره . وهم يرونه كما كان « جوفروا روديل ^(٢) » يرى الاميرة النائبة . ويجدون عبارات

(١) يعتبر « سارتر » كاتب هذا المقال زعيم هذا المذهب فى فرنسا .

(٢) شاعر من شعراء القرون الوسطى .

يتحدثون بها عنه تبلغ من الإقناع حدًا يجعلنا نراه معهم . وها هو ذا العالم قد
 جعل ينتظر في شوق عظيم هذه القصة التي أصبحت قصة المستقبل ، والتي أسبغ
 عليها منذ الآن مسحة من وقار الحفلات الجليلة الرهيبة . سنجد فيها تصويراً
 لسيئاتنا وآمالنا وغضبنا . ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نجد متطوعاً يكتبها .
 ويذهب ناقد آخر إلى أننا نجتاز الآن ثورة ؛ فلا أدبنا إذن كل خصائص أدب
 الثورات ، ثم هو يسرد هذه الخصائص . ومن ذا الذي لا يفهم حَسَقَ هذا الناقد
 الأخير عندما يتيين فيما بعد أن الكتاب الشبان من الخفة والرغوة بحيث
 لا يحققون نبوءاته . لا بد أن يكونوا كتاباً أدياء ، هدامين ، بل لعلهم من
 المحافظين الرجعيين . وقد تحدث أحد النقاد في الشهر الماضي عن قصة فرنسية
 ممتازة عن الأنصار البولنديين ، فكتب في كل اطمئنان وبساطة : « إنها قصة
 المقاومة » . ولو أننا كنا في الأزمنة الماضية لامتنع النقاد عن الحكم على
 المستقبل بهذا الشكل الجازم الذي يقطع كل سبيل ، ولتركوا فرصة للروس
 والبلجيكين والهولنديين والتشيك والإيطاليين ، بل للبولنديين أنفسهم
 وللآلاف من الفرنسيين المتحفظين بكتاب عن هذا الموضوع . أما الناقد
 المعاصر فلا يزال يمثل هذا الاحتياط السخيف ، فإن لذته في تعميم الأحكام
 وتطبيقها على الحالات المشابهة . وعند ظهور أى أثر أدبي جديد يقوم بعمل
 حساب ختامي ، كأن هذا الأثر حدّ يبين انتهاء التاريخ والأدب . فنرى « الحساب
 الختامي للاحتلال » و « الحساب الختامي لسنة ١٩٤٥ » و « الحساب الختامي
 للأدب التمثيلي المعاصر » . هو مغرم بهذه الحسابات الختامية . وليسهل على
 نفسه وضعها يقف بجمرة قلم سير الكاتب في مهنته . مثال ذلك أن كثيراً
 من النقاد قرروا بكل اطمئنان ودون تردد بعد ظهور « المدعوة » و « إنريكو »
 أن « سيمون دي بوفوار ^(١) » وأن « مولوجي ^(٢) » لن يكتب شيئاً بعد
 ذلك . كما أتى أذكر أن ناقلاً كان يسأل : ألا يكون « الغيثان » ،
 وهو أول كتاب لي ، في نفس الوقت « وصيتي الأدبية » ؟ وكانت هذه
 دعوة رفيقة ، إلى التوقف ؛ إن المؤلف الذي يعرف كيف يعيش يكتب

(١) زوجة « سارتر » وتعتبر من أنصار المذهب « الوجودي » .

(٢) كاتب شاب من الملحوظين . اكتشفه « سارتر » . والده من سكان أفريقية الشمالية ،

ووالدته فرنسية .

وصيته الأدبية في سن الثلاثين ، ثم يقف عند هذا الحد . والشئ من أمر هؤلاء المؤلفين الجادين المجتهدين الذين يخرجون كتاباً كل عامين أن النقاد لمزمون في كل مرة أن يعيدوا النظر في الأحكام السابقة التي أصدروها عنهم وإذا كانوا في كل مرة لا يستطيعون أن يقدروا بالضبط مصير الكتاب الناشئين من حيث النجاح والإخفاق ، فإنهم يجدون أنفسهم عند ما يظهر كاتب جديد في موقف هذا « القارئ » الذي يعمل في دار كبيرة من دور النشر والذي كتب على مخطوط أرسله إليه « بيير بوست ^(١) » وعلى أثر قراءته لهذا المخطوط : « يسأل » بيير بوست « عن المؤلف ، أموهوب هو؟ . والسؤال عن المؤلف الموهوب في لغة الناشرين معناه : كم كتاب في صدره ؟ وقد قرر النقاد أنه لا يوجد في صدر « مولوجي » إلا كتاب واحد ، أي إنهم بادروا في الحكم على هذا الشاب وأصدروا حكمهم عليه كأنهم انتقلوا الى المستقبل ، في نهاية حياته الطويلة ، واستقروا استقراراً ثابتاً في هذه اللحظة الدقيقة الممتازة التي تفيض فيها نفس « مولوجي » والتي يمكن فيها طبقاً للحكمة القديمة أن يقرر أعاش سعيداً أم شقيماً ، مجنوناً أم عاقلاً . وهم ينظرون إلى « أنريكو » ، وهو الأثر الأدبي الوحيد لهذا المتوفى ، وعلى اعتبار أنه لم يصدر بعده أي أثر آخر من شأنه أن يدفع على إعادة النظر في الموضوع ، فيصدرون عليه حكماً نهائياً . قد تقول : لكن « مولوجي » أصدر كتاباً ثانياً بعد ذلك . هذا صحيح ، ولكن كان مخطئاً حين أصدر هذا الكتاب ، وقد بين النقاد له ذلك بشكل جلي واضح . مامعنى كل هذا ؟ وما الصلة بين الخواطر المختلفة المتناثرة التي عرضناها ؟ عندما تستاء من قراءة مقال في إحدى الصحف فقلما تفكر في كاتبه . ولو أنك فكرت لما وجدسخطك لنفسه تكأة ، ولهبط استياؤك ، إلا إذ كان المقال صادراً عن رجل شهير . وإذا بدا لك هذا المقال على أنه سخرة كلف به محرر مسكين فخره في الليل وسط ضوضاء غرفة التحرير المشتركة ، فإن غضبك سيتحول إلى رثاء . ذلك أنك لا تنظر إلى الألفاظ التي تثير سخطك على أنها إشارات مطبوعة على الورقة التي بين يديك ، بل يخيل إليك أنك تسمعها مترددة على آلاف الشفاه كأنها هفيف الريح في اليراع . وكل واحد من هذه الألفاظ حدث اجتماعي مادام قد مر من

شفاه البعض إلى آذان البعض الآخر ، ومادام كان سبباً في إيجاد اتصالات متكررة بين مختلف أعضاء الهيئة الاجتماعية . وفي نهاية الأمر لا نجد للمقال صلة على الإطلاق بالهذيان الليلي الذي يصدر من صحفى غير مسئول ، انما هو تمثيل مجموعى عام ينتشر خلال مئات الآلاف من الأذهان . وهو باعتباره تمثيلاً مجموعياً يبدو لك في نفس الوقت ضاراً ومحاطاً بالجلال . وقد اتفق النقاد والأدباء اليوم على النظر إلى أى كتاب نظرتهم إلى مقال في صحيفة يومية . ولا يشغلون أنفسهم بما أراد المؤلف أن يقول ، بل هم أكثر من ذلك ينظرون إلى هذا الكتاب كأنه لم يكن له مؤلف . ولا يهتمون به إلا على أنه عبارة جامعة سائرة ستحشد خلال بضعة أيام أو بضعة أشهر جيشاً من القراء . وهم يرون فيه إنتاج الشعور المجموعى قد صدر من تلقاء نفسه ، أو كأنه مؤسسة من المؤسسات العامة . وليجيد الناقد وصف هذه المؤسسة ويوضح تطوراً نحو غايتها ، ويبين مختلف تأثيراتها ، فانه يؤثر أن ينظر إليها بأعين حافته ، وأن يبدى رأيه فيها كما يصدر كتاب دراسى في الأدب حكمه عن كتاب مضى عليه خمسون ومائة عام . فالواقع أن مثل هذه الكتب الدراسية هي التي تستطيع وحدها أن تقدر مدى التأثير الفعلى لأى إنتاج ذهنى ، وهي التي تستطيع وحدها أن تفسر لنا مصادف من نجاح ، وأن تحكم على بقاءه أو عدم بقاءه ، لأنها وحدها تستطيع بعد مرور مائة عام أن تكتب التاريخ . فانه يمكن بعد انقضاء هذا الأمد من الزمن أن يصدر حكم صحيح عن «السوريالزم» أعاد أم لم يعد الى الوجود فى السنوات المحيطة بسنة ١٩٤٥ وعن كتاب «التربية الاوربية» أكان أم لم يكن كتاب المقاومة . فبعد مرور مائة عام يمكن تحديد التيارات الأدبية التي ظهرت بعد هذه الحرب . كما يمكن بعد مرور مائة عام أن يكتب وصف دقيق لشكل القصة كما ننتظرها (هذا على فرض أننا ننظر لها شكلاً معيناً) وذلك بمقارنة مدى النجاح الذي يصادف القصص المختلفة التي ستظهر خلال فترة السنوات العشر التالية . إلا أننا قوم مجلون . ونحن متسرعون فى معرفة أنفسنا وفى الحكم على أنفسنا . ذلك أنه خلال هذه السنوات العشرين الأخيرة تقدم الشعور الواعى فى الغرب تقدماً عظيماً . وتحت ضغط التاريخ علمنا أننا تاريخيون . فكما ان مختلف فروع العلوم والآداب فى القرن السابع عشر تأثرت ببحوث ديكارت فى الرياضيات فالتسمت بها ، وتأثرت فى القرن الثامن عشر بنظريات نيوتون فى الطبيعة ، وفى القرن التاسع عشر بنظريات كلود برنارد

ولامارك في علم الحياة ، كذلك تأثر قرننا بالتاريخ واتسم به . فنحن نعرف أن أقل حركة تصدر عنا ستعين على صوغ التاريخ ، وأن أشد آرائنا شخصية ستسام في تكوين هذا الفكر الموضوعي الذي سيطلق المؤرخ عليه عبارة الفكر العام لسنة ١٩٤٥ . ونحن نعلم أننا ننتهي إلى عصر سيكون له فيما بعد اسم معين ومظهر خاص ، وأنه ستستخلص بسهولة خصائصه العامة وتاريخه الهامة ومعناه العميق . ونحن نحيا في التاريخ كما يحيا السمك في الماء ، ونشعر شعوراً دقيقاً حاداً بتبعتنا التاريخية . أو لم يقل لنا في سان فرانسيسكو إن مصير المدينة سيتقرر في السنوات المقبلة ؟ أو لم يكن هتلر يردد قوله : إن تلك الحرب التي فقدها ستقرر مصير الانسانية لألف عام ؟ وكلما ازداد شعورنا التاريخي حدة ، ازدادنا سخطاً من تخبطنا في الظلام ، ومن خضوعنا لحكم محكمة لن نعرفها ، ومن شعورنا بأننا نحكم في قضية كتلك التي وصفها « كافكا »^(١) « نجعل ماسيتقرر فيها بشأننا ، بل قد لا يصدر فيها قرار . أليس من المؤلم لنا أن يكون سرّ عصرنا وتقدير أخطائنا تقديراً دقيقاً موكولاً إلى أشخاص لم يولدوا بعد ، إلى أشخاص لن يزالوا أطفالاً سيؤدبهم أولادنا وحفدتنا حتى بعد وفاتنا بمدة طويلة ؟ زيد أن تقطع الطريق على هؤلاء الأطفال الأغرار ، وزيد أن نُقرر منذ الآن وللأبد ما يجب أن يكون رأيهم فينا . ولو استطعنا أن نعكف على أنفسنا فننظر فيها وأن نستخلص المآل ما لنا من أثر تاريخي في نفس الوقت الذي تحدث فيه هذه الأعمال ، فقد يخيل إلينا أننا سنفهم هؤلاء الأطفال ، وأنها سنعرض عليهم حكماً على عصرنا يبلغ من القوة والسداد مبلغاً لن يبقى عليهم بعد ذلك إلا أن يقبلوه كل القبول . وكذلك نقضى وقتنا في تحديد الحوادث التي نحياها وفي ترتيبها وإصاق عنوانات لها ، نقضى وقتنا في تدوين كتاب تاريخ دراسي عن القرن العشرين لتقرأه الأجيال المقبلة . ولطالما ضحكنا من هذه التمثيلة الشعبية التي كان مؤلفها يضع على لسان أبطاله من جنود معركة « بوفين »^(٢) « هذه العبارة : « أما نحن فرسان حرب المائة عام . . . » . والآن يجب أن نضحك من أنفسنا ؛ فإن شباننا كانوا يسمون أنفسهم « جيل ما بين الحربين » وكان ذلك قبل اتفاق ميونيخ بأربع سنوات . يجب أن

(١) إشارة إلى القصة التي كتبها « كافكا » واسمها « القضية » . والتمه في هذه القضية يتخبط أمامهم لا يعرفها ولا يواجه بها ولا يعرف الحكم الذي صدر فيها
(٢) معركة وقعت في أوائل حرب المائة عام .

نضحك منهم وإن أثبتت الحوادث أنهم كانوا محقين فيما أطلقوا على أنفسهم من لعب ؛ لأنهم جعلوا يتحدثون عن أشخاصهم كأنهم أبناء أنفسهم . وهذه أيضاً طريقة غير مباشرة للاعلاء من شأن «الآنا» le moi هذا «الآنا» البغيض فإن الإنسان لا يسهه إلا أن يحترم آباءه وأجداده . يجب أن نقنع أنفسنا بهذه الحقيقة المرّة وهي أنه مهما ارتفعنا للحكم على عصرنا فإن التاريخ سيكون في المستقبل أكثر منا ارتفاعاً لإصدار حكمه علينا . وهذا الجيل الشامخ الذي يخيل إلينا أننا اتخذنا فيه لأنفسنا عس النسر لن يكون بالقياس إليه إلاّ بمثابة حجر من ججور الضباب ، والحكم الذي نكون أصدرناه سيضم إلى أوراق قضيتنا . ومهما نحاول أن نكون مؤرخي أنفسنا فإن مجهودنا سيذهب عبثاً . فإ المؤرخ نفسه إلا ثمرة من خلق التاريخ . وحسبنا أن نصنع تاريخ زماننا من يوم إلى يوم كما نستطيع ، وأن نختار بين السبل تلك التي تبدو لنا أقومها . ولكننا لانستطيع أن نصدر في هذا التاريخ مثل تلك الآراء الحاسمة التي كانت من أسباب نجاح كبار مؤرخينا أمثال « تين » و « ميشليه » ، فنحن في التاريخ ، يأخذنا من كل وجه . والامر كذلك بالنسبة للناقد ، فعبثاً يفار من مؤرخ الأفكار .

يستطيع « بول هازار ^(١) » أن يتحدث عن الأزمة الفكرية في سنة ١٧١٥ ، ولكننا لا نستطيع أن ندرس « أزمة القصة في سنة ١٩٤٥ » . بل هل نعلم أن القصة تجتاز الآن أزمة ؟ وكل ما يمكننا أن نتبينه بوصوح ما ينوى كل مؤلف وكل مدرسة أدبية أن يعملها ، كما يمكننا أن نتبين من آثار هذا المؤلف أو أصحاب هذه المدرسة أينفّذون فعلاً برنامجهم . في مقدورنا أن نستخلص بعض الطوايا المستترة وبعض الأغراض الخفية . ولكن ليس في وسعنا أن نتصور الشكل الذي سيتخذه هذا الأثر الأدبي في نظر قراء المستقبل ، كما أنه لا يمكن منذ الآن أن نعتبره من مقتنيات الفكر الموضوعي لعصرنا ، لأن ناحيته الموضوعية لا تزال خافية علينا ؛ إذ أن هذه الناحية ليست إلا المظهر الذي سيتخذه هذا الأثر في نظر الأجيال المقبلة . فليس يسعنا أن نكون في نفس في الداخل وفي الخارج . ونحن حين ندرس الآثار الفكرية بروح من ذلك الوقار الذي لم يكن يتجه فيما مضى إلا لكبار الموتى ، نوشك أن نقضى عليها . فما من

(١) كان أستاذ الأدب في « الكوليج دى فرانس » .

قصصى يكتب عنه الآن — وإن قل شأنه — إلا اتخذت الكتابة عنه مظهر الاجلال الذى كان « لانسون » يتخذة فى أسلوبه للتحدث عن « راسين » أو « بيديه » للتحدث عن « أغنية رولان » . وقد يرضى ذلك بعض الكتاب ، لكن هذا الرضا يصحبه شئ من الحنق الغامض ، لأنه لا يطيب للإنسان أن ينظر إليه ، وهو حى ، على أنه بناء من تلك الأبنية العامة . ولناخذ حذرنا من هذا الأمر ، فإن هذه السنة الأدبية ، وهى لا تمتاز بصفة خاصة عن غيرها من السنوات بنوع آثارها وقيمتها ، تملؤها الأبنية العامة . منذ الآن يجب أن تتعلم التواضع من جديد ونصطنع روح المغامرة . وما دمنا لا نستطيع أن نخرج عن الميدان الشخصى إلى الميدان الموضوعى ، من الذاتية إلى الموضوعية — ولا أقصد الذاتية الفردية بل ذاتية العصر — فينبغى أن يعدل الناقد عن إصدار أحكام يظنها نهائية لا مرد لها ، ويجب أن يعتبر نفسه فى نفس موقف الكاتب ويشاطر حظه من حكم المستقبل عليه . فليست القصة تطبيقاً مديراً محكماً لقواعد الفن الأمريكى ولا توضيحاً لنظريات « هيدجير^(١) » ولا هى نشرة من نشرات « السوريلازم » . كما أنها ليست عملاً من أعمال السوء ، أو حادثاً له نتائج دولية خطيرة ، إنما هى محاولة فيها مجازفة تحتمل النجاح والإخفاق ويقوم بها فرد من الأفراد . وعندما يقرأ شخص من معاصرى المؤلف قصته ، وهذا الشخص مثل المؤلف محاط أيضاً بنفس السياج من الذاتية ، فإنه يشترك معه فى احتمالاته . فالكتاب جديد غير معروف ، لما يظهر خطره بعد ، وعلينا أن ندخله دون أن يصبحنا دليل . ولعلنا لا نتنبه إلى أظهر الصفات التى يتحلى بها . كما أنه من الجائز على عكس ذلك ، أن يدفنا بريق سطحي إلى الخطأ فى تقديره . وربما استكشفتنا فى نهاية إحدى صفحاته فكرة ألقيت عفواً ، من تلك الأفكار التى يخفق القلب لها جفأة ، والتي تضىء الحياة كلها ، كما حدث « لدانييل دى فونتانا^(٢) » عندما استكشف « الغذاء الدنيوى^(٣) » . وأخيراً يجب أن نخاطر : أيكون الكتاب جيداً أم رديئاً . لنخاطر فهذا كل ما نستطيع . ومشاركة الناقد فى

(١) فيلسوف « وجودى » ، وزعيم هذا المذهب فى ألمانيا . أثر فى « سارتر » وفى مذهبه فى فرنسا .

(٢) بطل من أبطال قصة « أسرة تيبو » تأليف روجيه مارتان دوچار .

(٣) كتاب من تأليف أندريه جيد .

الميل العام إلى التقدير الاجتماعي للكتب ، وخوفه من التقصير في هذه المشاركة يجعلانه يقرأ للمرة الأولى وكأنه يعيد القراءة ، فهو مطمئن إلى أحكامه . وأخشى أن تكون أحكامه هذه التي يصدرها على كتاب ما فتحجّره تحجيراً علامة من تلك العلامات التي تؤذّن بموت الفن ، والتي كان يتنبأ « هيغل » بها . وقد يُقال : ما الذي يدفعه إلى سلوك هذا المسلك ؟ فهذا الناقد الذي كان يدعى منذ نحو عشرين عاماً تلمس أدق ما يمتاز به المؤلف من خصائص فردية عن طريق حدس دقيق ، ماله يقصر اهتمامه اليوم على البحث عمّا للأثر من صدق في الهيئة الاجتماعية ؟ ذلك أن المؤلف نفسه أصبح اجتماعياً . لم يعد في نظر الناس ذلك الشيء النادر الوجود ، بل تغيرت نظرهم إليه ، وصاروا يعتبرونه الآن سفيراً لهم وممثلاً . وفيما مضى كان كل كاتب جديد يشعر أنه غير مرغوب فيه على الأرض كأنه زائد عن الحاجة ، ولم يكن أحد ينتظره . فالجمهور لا ينتظر شيئاً أو بالضبط ينتظر الكتاب الجديد الذي سيصدره القاصيون الذين يعرفهم ، والذين تشبّع بأسلوبهم وتمثل آراءهم ونظراتهم . إلا أن بين المشكلات التي تظهر في كل عصر والحلول العارضة أو الموروثة التي تحملها هذه المشكلات بقدر المستطاع يتحقق دائماً نوع من التوازن . وكل شخص جديد يظهر مظهر الدخيل . فلم يكن العالم ينتظر فرويد ، وكانت نظريات ريبو وفونددت في علم النفس تكفي ، مهما كانت قيمتها ، لتفسير كل شيء ما عدا مشكلة أو مشكلتين شاذتين كان يرجى ردهما إلى النظام . كما أنه لم يكن ينتظر أنشتاين ، فكان يُظن أن من الممكن تفسير تجارب ميكلسون ومورلاي دون التخلي عن نظريات نيوتون في الطبيعة . كذلك لم يكن ينتظر بروسست أو كلوديل ، فإن موباسان وبورجيه وليكونت دي ليل كانوا يكفون لإرضاء حاجات النفوس الرقيقة المشاعر . ونحن اليوم كذلك لا ننتظر الأفكار أو الأسلوب ، إنما ننتظر الرجال . يسعى إلى المؤلف في داره ، ويُتوسل إليه . فإذا ظهر أول كتاب له قيل : « ما هذا ! ما هذا ! قد يكون المؤلف رجلاً . » وإذا ما ظهر الثاني فنحن واثقون بأنه هو هو . وإذا ظهر الثالث يكون قد عُقد له لواء الامارة ، فأخذ يرأس اللجان ويكتب في الصحف السياسية ويُرشح للنيابة في البرلمان أو لعضوية المجمع اللغوي . المهم أن يتوجّح في أسرع وقت ممكن . وقد جعل الناشرون ينشرون له وهو حي آثاره بعد الموت . ولعل

المثال يهبي^٤ ثمناله . وهذا بالضبط هو التضخم الأدبي . وفي الظروف العادية الهادئة يوجد فرق طبيعي مستقر بين العملة المتداولة وبين الفطاء الذهبي لهذه العملة ، كما يوجد مثل هذا الفرق بين شهرة مؤلف والكتب التي يخرجها . فاذا ما اتسع هذا الفرق نشأ تضخم . وقد اتسع الفرق الآن إلى أقصى الحدود . وكل شيء يجري كأن فرنسا في حاجة ملحة إلى رجال عظام .

وهذا يرجع أولاً للصعوبة في حلول كتاب جدد محل أولئك الذين تنتهي مهمتهم في الظروف الطبيعية كان هذا الحلول يكفله التسرب المتصل لعناصر منتسبة إلى الأجيال الجديدة ، إلى الطبقات القديمة من الكتاب . لذلك لم يكن التغيير ملموساً جداً . وكان الشيوخ بتشبههم بما اكتسبوا من امتيازات يقفون في سبيل اندفاع المحدثين إلى حذما . وبعد سنة ١٩١٨ اختل التوازن لمصلحة الشيوخ ، فإن الشباب بقوا في ساحات القتال ، في فردون على المارن والإيزر . أما اليوم فالأمر على عكس ذلك . نعم إن فرنسا فقدت كثيراً من شبابها ، لكن الهزيمة والاحتلال من ناحية أخرى عجلا بتصفية الكتاب من الأجيال السابقة . فكثير من الشيوخ الذين كللهم المجد تحولت سيرتهم تحولاً سيئاً ، في حين التمس غيرهم لأنفسهم مأوى في الخارج يلجأون إليه ، وبقوا به يغمهم النسيان شيئاً فشيئاً ، وفريق ثالث منهم أدركته الوفاة . وقد قال شاعر مجيد في شيء من الحسرة والألم حين اطلع على تبت ناقص للأدباء الذين تعاونوا مع العدو : « إن كفة مجدنا الخفيفة بالقياس إليهم » . فمنهم الخونة والمتهمون أمثال موتيرلان ، وسيلين ، وشاردون وجوهاندو ، ودريو ، وارانديس ، وأبيل هرمان ، وأندرية اتيريف ، وهنري بوردو . ومنهم المنسيون أمثال موروا ، ورومان ، وبرنانوس (وهذا الأخير يجتهد اليوم ما استطاع ليذكرنا بوجوده) . ومنهم المتوفون أمثال رومان رولان ، وجيروودو . ولما عاد ماريتان إلى نيويورك بعد زيارة قصيرة لفرنسا سئل عن رأيه في الجمهورية الرابعة ، فقال : « إن فرنسا في حاجة إلى رجال » يريد بالطبع : « . . . إلى رجال من سنى » . على أن من الحق رغم ذلك أن الحسارة المفاجئة في صفوف الشيوخ من الأدباء قد تركت فراغاً كبيراً تحاول ملاءة على مجل . كذلك تجري الأمور في بعض البلاد حين يتولى الحكم حزب جديد ، فإن هذا الحزب يبعد نصف مجلس الشيوخ ويعين مكانه أعضاء جدداً . وعلى ذلك رفع إلى مرتبة الزعامة بعض

الكتاب كانوا خليقين أن ينتظروها مدة طويلة لو أنهم نشأوا في ظروف عادية . على أنه ليس بهذا بأس ، بل على العكس . ففي اثناء الاحتلال عند ما فجئ الجمهور بحياة بعض كبار الكتاب تحول عنهم إلى رجال أحدث منهم سناً ولكن ممن يمكن الإعتماد عليهم فنحهم ثقته وفي نفس الوقت أضفى على هؤلاء الناشئين الحديتين مجدداً لما يستحقوه بعد بفضل آثارهم ، ولكنهم منحوه لايجاد التعادل والتوازن بينهم وبين ما أفقده الخونة .

وكانت هذه الحركة تنطوى على قوة وعظمة مؤثرتين . وأنا أعرف بعض الكتاب الذين صمتوا فرغمهم صمتهم . لم يرفعهم من الناحية المعنوية كما يمكن أن يظن ، بل من الناحية الأدبية . وهذا عدل . فليس واجب الأديب مقصوراً على الكتابة بل يتعدها أيضاً إلى إيثار الصمت عندما تقضى به الضرورة . أما الآن وقد انتهت الحرب ، فن الخطر أن نتصيد كبار الرجال معتمدين على نفس المبادئ والأسس . وقد كان الكتاب مضطرين إلى الراحة ، لكن الكتاب لا يستريحون . وليس بين الكتاب المنتجين اليوم من لم يشارك من قريب أو بعيد في المقاومة ، كان له على الأقل ابن عم أو ابن خال أو أى قريب آخر اشترك في هذه الحركة . وبذلك أصبحت الكتابة والمقاومة مترادفتين في الأوساط الأدبية . وليس من بين المؤلفين من يظهر كتاباً جديداً عارياً مجرداً من كل شيء كالطفل الوليد ، بل كل كتاب يظهر تحيط به هالة من الشهامة . وينشأ عن ذلك لون خاص من الزمالة والإخاء . فإذا عرض الناقد لكتاب سأل نفسه : « كيف أستطيع وأنا من المشتركين في المقاومة أن أقول لهذا المقاوم القديم إنى لا أسيع قصته الأخيرة عن المقاومة ؟ » . وهو مع ذلك يقول له لأنه أمين ، ولكنه يشعر القارئ أن هذا الكتاب ، على الرغم من إخفاقه ، ينطوى على صفات أرفع وأندر من تلك التي كان ينطوى عليها لو أنه نجح ، ينطوى على شيء كأنه أريج الفضيلة . وما هى إلا خطوة يسيرة في هذا الاتجاه حتى يتحول هذا الخلط الذى لا مفر منه بين القيمة المعنوية للكاتب وقيمه الأدبية ويستغل في المصلحة السياسية . فكيف الوقوف في وسط الطريق ! فن اختار لنفسه في براءة وسذاجة أن يحب قصصاً معيناً لأنه كان يقاوم العدو ، لم لا يختار لنفسه أن يحب قصصاً آخر لأنه كان زميلاً له في الحرب ؟ وفي بعض الأحيان تتداخل الأحكام وتختلط : فهذا الكاتب وهو « بورجوازي » وكاتوليكي ،

لا يمكن أن تكون له قيمة أدبية في رأى الناقد من أحزاب اليسار ، ومع ذلك فإنه قيم مادام قد اشترك في المقاومة . ويخرج من هذه المآزق بتقديرات مختلفة متفاوتة ، ويجرى في العالم الأدبي موجة قوية من المجاملة . لذلك لن أتهم بالجبن أولئك الذين يكبرون كتباً مراعين في ذلك مغزاها السياسي أكثر من قيمتها الحقيقية . فهذه حالنا جميعاً اليوم . ولعل أشد المنكرين لهذه الحال قد يصدرن في أحكامهم عن دوافع سياسية . والمؤلف الذى يختار على هذا النحو والذى يدفع إلى الصف الأول — على الرغم منه في بعض الأحيان — يمثل المقاومة أو أسرى الحرب أو الحزب الشيوعى أو الحزب الديمقراطى المسيحى ، فهو يمثل كل شيء إلا نفسه . وكيف نعرف أن المكانة التى يحتلها تأتيه من السنوات التى قضاها فى المنفى أو فى السجن أو فى الغربة أو من المقاومة الخفيفة ، أو أنها تأتيه بكل بساطة من موهبته الأدبية . على هذا الأساس تستهلك الأحزاب السياسية عدداً ضخماً من كبار الرجال . فى سنة ١٩٣٩ رشح الحزب الشيوعى الكاتب « بول نيزان » لجائزة الحلفاء الأدبية ، ومكنه من الحصول عليها . وكان « بول نيزان » فى ذلك الوقت المرشح الكبير ومنافس « أراجون » وقد غادر نيزان الحزب عند توقيع الاتفاقية الألمانية السوفيتية . وأنا أراه مخطئاً فى تصرفه ، وإن يكن ذلك من شأنى . ولكن ما هذا التحول الذى جرى بشأنه بعد ذلك ؟ يجب أن نلاحظ أولاً أنه مات مقاتلاً ، وأنه فضلاً عن ذلك كان كاتباً من الطراز الأول . واليوم فما بال الصمت يخيم على اسمه : فأولئك الذين يحصون خسائرنا يذكرون بريغو وديكور . أما نيزان فلا ذكر له . أيجب أن نستنتج من ذلك أن أراجون إذا ترك الحزب (وأنا أعرف أن هذا فرض غير معقول) سيهبط إلى أسفل الدرك بعد أن ارتفع إلى القمة ؟ والجمهور كله شريك فى هذا المسلك . وقد تبيننا فى خزى وهوان أن فرنسا لن تقوم فى عالم الغد بالدور الذى كانت تقوم به فى عالم الأمس . والحق أن أحداً منا لا يلام فى ذلك : فلم يكن فى بلدنا ما يكفيه من الرجال ، ولم يكن فى أرضنا ما يكفى من الثروة المعدنية . وضعف هذه الثروة المعدنية فى فرنسا ، مثله فى أوروبا الغربية نتيجة تطور طويل . ولو أننا تنبهنا إلى الأمر تدريجياً لحيأنا أنفسنا لذلك فى شجاعة . على أن المهمة الباقية لنا لاتزال رائعة ، ولكننا لم نرَ الحقيقة إلا بعد الهزيمة . وحتى سنة ١٩٣٩ كان انتصارنا الماضى من جهة — ذلك الانتصار

الذى ساهم في زيادة الأمور سوء على سوء بالاقلال من عدد السكان على أثر ضحايا الحرب — وإزدهار حياتنا الفكرية والأدبية من جهة أخرى ، كل ذلك أخفى عنا قيمتنا الفعلية . فنحن نحتمل كارهين هذه الحقيقة التي اتضح لنا في خشونة وجفاء . فالجزى الذى لحقنا على أثر هزيمتنا في معركة سنة ١٩٤٠ ، والالام من حرماننا التسلط في أوروبا ، هذان الأمران يمتزجان في قلوبنا . فيخيل إلينا أحياناً أننا دفننا وطننا بأيدينا . وقد نرفع رأسنا أحياناً مؤكداً أن فرنسا الخالدة لا يمكن أن تموت . وبعبارة أخرى تسلط علينا في السنوات الخمس الأخيرة داء عضال من مركب النقص . والموقف الذى يتخذه سادة العالم الآن ليس من شأنه أن يبرئنا من دأنا . نضرب المائدة بأيدينا فلا يصغى إلينا أحد . نذكر بمجدنا الماضى ، فنُجاب بأنه بالفعل مضى وانقضى . إلا أننا أدهشنا العالم في أمر واحد ، فإنه مازال يُعجب بقوة أدبنا فيقال لنا : « ماذا ! لقد هزمتم واحتل العدو أرضكم وخرّبها ، وأتم على الرغم من ذلك تنتجون كل هذا الأدب ! » . ومن السهل تفسير أسباب هذا الإعجاب ، فإذا كان الإنتاج الأدبى للانجليز والأمريكين قليلاً ، فذلك أنهم كانوا مجتهدين ، وكان كتبهم مشتتين في أنحاء العالم . أما نحن ، فعلى عكس ذلك ، كنا مضطهدين ومطاردين ، وفي كثير من الأحيان معرضين للموت . ولكننا على الأقل كتبنا في فرنسا ، في بلدنا ، في منازلنا . وكان في وسع كتابنا أن يكتبوا ، إن لم يكن في وضح النهار ، فعلى الأقل في الخفاء . ثم إن رجال الفكر من الأنجلوساكسون ، وهم مؤلفون طبقة خاصة منفصلة عن بقية الأمة ، يعجبون دائماً كلما رأوا في فرنسا أدباء وفنانين متصلين اتصالاً وثيقاً بحياة بلدهم ومعنيين بشؤونها . وأخيراً فإن كثيراً منهم يشارك في هذا الشعور الذى أفضت به إلى قريباً سيدة إنجليزية إذ قالت لى : « يتألم الفرنسيون في كبريائهم ، ويجب أن نقنعهم بأن لهم في العالم أصدقاء . لذلك ينبغي ألا تتحدث إليهم الآن إلا فيما نعجب به من آثارهم وأعمالهم ، في أدبهم مثلاً » . ونتيجة لهذا الإعجاب الذى تسرع الشعوب في إيدائه ، وتكلف نشره ، تظهر الولايات المتحدة وانجلترا وكثير من الدول الأخرى في العالم اهتماماً كبيراً بكتابنا . ولم يحدث في يوم من الأيام أن وجهت إلى كتابنا القصصيين وإلى سفرائنا دعوات بقدر ما وجهت إليهم الآن . ورغبة في رؤيتهم وفي الاجتماع إليهم وفي إطعامهم قد سمحت سويسرا بعضهم وسمحت أمريكا بعضهم الآخر .

وستعمل بريطانيا ما تستطيع . وفي أثر ذلك أخذنا أدبنا على أنه جد . فأولئك الذين لم يكونوا يرونه فيما مضى إلا عبثاً يتفرغ له المتعطلون ، أو نشاطاً منكرأً يعتبرونه وسيلة من وسائل الدعاية فيتعلقون بمكاتبه الخطيرة لأن الأمم الأجنبية تؤمن بها . وقد يؤثر كثيرون منا أن يكون موضع الإعجاب بنا قوة صناعتنا أو كثرة عدد أسلحتنا . غير أن حاجتنا إلى التقدير بلغت حدأً جعلهم يقنعون بالإعجاب بالأدب . وهم يتمنون فيما بينهم وبين أنفسهم أن تسترد فرنسا مكاتبها الحربية فتصبح البلد الذى أنتج تورين وبونابرت ، ولكنهم مؤقتاً يقنعون أن تكون البلد الأدبى الذى نشأ فيه ريميو وفاليرى . ويصبح الأدب فى نظرهم لوناً من ألوان النشاط يحل مؤقتاً محل غيره . وكان مباحاً أن يعتبر الكاتب رجماً لعيناً فى ذلك الوقت الذى كانت المصانع فيه تُسّر ، وعندما كان للقواد جند يخضعون لأمرهم . أما اليوم فيبحث فى لُف عن كتاب ناشئين حديثى السن ، ويسرع فى وضعهم فى فرن صناعى كذلك الذى يوضع فيه بيض الدجاج لتمجيد فرخه ، حتى ينموا بسرعة فيصيروا رجالاً عظاماً يرسلون إلى لندن وستوكهلم وواشنطن .

ولم يتعرض الأدب قط لمثل هذا الخطر الحائق . فالسلطات الرسمية وغير الرسمية ، الحكومة والصحف بل كبار رجال المصارف والصناعة استكشفوا قوته وسيستغلونها فى مصلحتهم . وإذا نجحوا فى تحقيق غرضهم كان للكاتب بعد ذلك أن يختار ، فإما أن يختص فى نشر فنون الدعاية الانتخابية ، وإما أن يلتحق بقسم من أقسام وزارة الاستعلامات . وحينئذ لا يهتم النقاد بتقدير مؤلفاته . بل بتقويم أهميتها الوطنية ومدى نفاذ أثرها . واليوم الذى يستطيعون فيه استعمال الإحصائيات فإن نشاطهم سيتقدم تقدماً عظيماً . والمؤلف إذ يصبح موظفاً ويرزح تحت عبء مظاهر التكريم سيتوارى فى استسلام وراء آثاره الأدبية . وعندئذ لن يذكر اسمه وعلى أحسن الفروض سيتحدث بسهولة التعبير عن قصته « لمارو » أو « لسانسون » كما يقال اليوم شراب « فاولير » أو قانون « أم » ، وذلك لمجرد الاستذكار . وتوجد على حدود المدن الكبيرة مصانع تجمع فيها القمامة ، وهذه القمامة تحترق احتراقاً جيداً ما بقيت الحرارة مرتفعة . والهيئة الاجتماعية ، وهى توالى مجهودها ، تريد أن تجمع هذه المواد التى لم ترها حتى الآن أوجهاً للاستعمال ، وأعنى بها الكتاب . ولناخذ حذرنا من مثل هذا

العمل ، فقد كانت بيننا قامة ثمينة لا بأس بها . فإذا نزع إذا تركناها تتحول إلى دخان ؟ ولا يجب أن تفهم المهمة الأدبية على هذا الوجه . نعم إن الكتاب حدث اجتماعي ، وإن على الكاتب حتى قبل أن يأخذ قلمه أن يقتنع بهذه الحقيقة كل الاقتناع . فالواقع أن عليه أن يشعر شعوراً تاماً بتبعته ، فهو مسئول عن كل شيء : مسئول عن الانتصار في الحروب وعن الهزيمة ، مسئول عن الثورات وعن قمعها ، وهو شريك في الاضطهادات إذا لم يكن بطبيعته حليفاً للمضطهدين . وليس يرجع ذلك إلى أنه كاتب فحسب ، بل يرجع إلى أنه رجل قبل كل شيء . وهذه التبعة يجب أن يحياها وأن يريدتها . (ويجب أن تكون الحياة والكتابة شيئاً واحداً بالقياس إليه ، لا لأن الفن ينقذ الحياة ، بل لأن الحياة تعبر عن نفسها بوسائل مختلفة ، ووسيلة التعبير عن الحياة هي الكتابة) . لا ينبغي أن يعكف على كتبه ليحاول أن يتبين مدى تأثيرها في حفدته . فلا عليه أن يعرف أولاً يعرف أنه سيستحدث تياراً أدبياً جديداً ، وكل ما يطالب به أن يقوم بأداء مهمته ويتعهدا في الوقت الحاضر . ليس عليه أن ينتقل إلى مستقبل بعيد ليحكم على آثاره ، إنما يجب أن تنصب إرادته على المستقبل القريب ، يوماً فيوماً . قد يرى المؤرخ أن الهدنة الموقعة سنة ١٩٤٠ أعانت على كسب الحرب ، معتمداً في رأيه على أن ألمانيا لم تكن لتجرؤ على مهاجمة الاتحاد السوفيتي — وكانت هذه المهاجمة أول خطوة في سبيل هلاكها — لو أن الإنجليز استقروا منذ سنة ١٩٤٠ في مدينة الجزائر أو في بيروت . هذا جائز . إلا أن هذه الاعتبارات لم تكن لتقوم سنة ١٩٤٠ إذ لم يكن في وسع أحد أن يقدر وقوع النزاع بين ألمانيا وروسيا بمثل هذه السرعة . وعلى ذلك ، وعلى أساس المعلومات الواقعية التي كانت بين أيدينا في ذلك الوقت ، كان يجب مواصلة الحرب . ولا يختلف الكاتب في هذا عن رجال السياسة ، فإن ما يعرفه قليل محدود ، ويجب أن يصدر عما يعرفه . وما عدا ذلك — أي مدى نجاح آثاره على مر الزمن — فن أسرار الغيب التي لا يمكن إدراكها . لنعترف أن لكتبتنا ناحية ستخفي علينا دائماً : فالحب ، وسيرة الفرد ، والثورة ، كل هذه أمور نعرف أولها ولا نتبين أعقابها . فلم يشذ الكاتب إذن عن هذا الحكم العام ؟ من أجل ذلك يجب أن يغامر ويقامر بالنتائج . ويقال له من كل صوب إنه الرجل المنتظر . فليعلم حق العلم أن ليس هذا حقاً ، إنما ينتظر ممثل للفكر الفرنسي ، لارجل يحاول في قلق أن يبتكر التعبير

بالألفاظ عن معان جديدة . وقد قامت شهرته الحاضرة على خطأ في الفهم والتقدير . ويُنتظر الرجل العظيم دائماً لأنه مصدر فخر لامته ، ولكن الفكرة العظيمة لا تنتظر لأن ظهورها يؤدي النفوس . فليقبل الأديب إذن الأصل الذي تقوم عليه الصناعة ، وهو خلق الحاجة ليتمكن إشباعها . فليخلق إذن الحاجة إلى العدالة والحرية والتضامن ، وليحاول أن يرضى هذه الحاجات بما ينشئ من آثار . ولنتمن أن يتاح له التخلص من مظاهر الحفاوة والتكريم التي أثقلت كاهله ، فيجد في نفسه القوة التي تسمح له بالخروج على التقاليد ويشق لنفسها طرقها الجديدة معرضاً عن الطرق السلطانية ولو أعدت له الدولة سيارة تسابق البرق . ولم أعتقد قط أن من اليسير إنتاج أدب رفيع إذا كان الاحساس رديئاً والشعور سيئاً ، ولكني أعتقد كذلك أن الاحساس الرفيع والشعور الممتاز لا ينشآن عفواً ، بل لا بد من أن يثيرها الكاتب . وربما استطاع النقد أن يساهم في إنقاذ الأدب إذا ما عني بفهم الآثار الأدبية أكثر من عنايته بتقويمها . ومهما يكن من شيء فقد وطننا أنفسنا على محاربة التضخم الأدبي . وأغلب الظن أننا لن نكسب بذلك عطف كثير من الناس . لكن الأدب تأيم ، ومن الممكن أن يكون شعور عنيف ، وإن كان غضباً ، خليقاً بإيقاظه .

ماه بول ساد

قلها عن الرسالة دكتور توفيق شحاته